اليسار وإصلاح الحالة العربية

د. أنور مغيث
أستاذ جامعي (مصر)

في قلب الإحباط العربي السائد جاء كتاب المفكر اللبناني الأستاذ كريم مروة «نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي». والعنوان يحتضن الهم العربي من المحيط إلى الخليج. ويبدو هذا الإلمام للواقع العربي أمراً بديهياً لا تحتاج مشروعيته إلى تبرير. فقد بدأ اليسار في فكرنا المعاصر عربياً في منطلقاته وفي آليات عمله وفيما نتج عنه من آثار. وهكذا أيضاً عليه أن يعاود المسير، جاء أسلوب كريم مروة في الكتاب هادئاً وحميمياً بصورة قد تبدو متنافرة مع كلمة «اليسار» الموجودة على غلاف الكتاب.

فلقد تعودنا أن نقرأ حينما تأتي في عنوان كلمة «يسار» إما كتابة تنديدية بالإنتهاكات والمظالم، وإما كتابة استنفارية آمرة عن المهام العاجلة الواجب إنجازها بلا هواده أو تأخير. وفي كلتا الحالتين سواء من الغضب أو من الحماس تغيب الحكمة. والحكمة ليست حلولاً فنية لمشكلات عملية ولا نظريات دقيقة لتسير الظواهر، أي أنها ليست تكنولوجية وعلماً، لكنها دائماً هي الإنشغال بالمصير. من هنا تأتي الروح التي يبثها أسلوب كريم مروة والتي تفسح مجالاً كبيراً للتروي والتأمل. لكن ذلك لا يعني أن القضايا المطروحة غير ملحة. فالكتاب مهموم بآلام الإنسان وأحلامه، وبالواقع البائس للمواطن العربي وإمكانيات تغييره. إننا بالفعل إزاء قضايا ملحة. لكنه نوع جديد من الإلحاح. فالأمر لا يتعلق بخطأ

يمكن إصلاحه عن طريق اتخاذ إجراء معين. إنما هو إلحاح يمكن أن تنطبق عليه تلك العبارة التي اختتم بها جاك دريدا إحدى مقالاته «الأمر خطير ويحتاج لتأمل عميق وطويل، خذوا وقتكم لكن عليكم أن تنجزوا ذلك سريعاً».

لقد انطلق كريم مروة من خبرة طويلة في صفوف اليسار العربي والدولي، ومن رصد لتحولات العالم يملؤه الرغبة في الفهم والإستجابة، وكشف حساب لواقعنا العربي، ووضع المواطنين فيه تملؤه الحسرة والألم.

أول ملامح المشهد العالمي هي تلك الأزمة التي يعيشها اليسار في العالم بعد انهيار التجربة السوفييتية. ويقتضي الخروج منها تقديم قراءة نقدية نجد ملامح لها في كتابه، حيث يدعو إلى التخلي عن الشمولية في الحكم ونبذ العنف حتى ولو كان ثورياً وتوسيع جمهور اليسار وعدم الإقتصار على الطبقة العاملة. أما الآمال الكبرى عن الإشتراكية والعدالة الإجتماعية والحرية فقد أودعها في منطقة الأحلام حتى يستطيع اليسار تبني سياسة واقعية ملائمة. ويرصد مروة تحولات العالم المعاصر بشكل مختلف، طالباً من اليسار ألا يستعجل الحكم على نهاية الرأسمالية بسبب الأزمة المالية أو التقييم السلبي للعولمة بسبب توحش رأس المال المعولم. ويرى أن جزءاً من الإضطرابات ينشأ بسبب التناقض بين تقدم العلم والصناعة وبين قصور الوعي البشري، وأن رأس المال المعولم يسير في اتجاه موضوعي يقود إلى وحدة العالم، التي يقتضي الإقرار بها أن يخرج المغلقون على هوياتهم القديمة من الأسر الذي يضعون أنفسهم فيه ويدخلوا العصر من أبوابه الواسعة.

أما فيما يخص المنطقة العربية فيقدم مروة نقداً مهماً لتجربة اليسار فيها. فاليسار العربي تقاعس عن استكمال الجهد الذي قدمه مفكرو النهضة الأولى في القرن التاسع عشر في إرساء دعائم الديمقراطية والتقدم. وبالفعل لو نظرنا إلى قضايا مثل

حرية المرأة أو نقد الثقافة التراثية نجد رصيد اليسار فيها قليلاً؛ لأنه افترض أن حل المشكلة الإجتماعية سوف يحل تلقائياً باقي المشكلات. بل إن ممارسة اليسار العربي أقامت معوقات في طريق التقدم، من وجهة نظر كريم مروة، بتحالفه مع الإتجاهات القومية التي وصلت إلى الحكم عبر الإنقلابات العسكرية وأنشأت أنظمة استبداد معطلة لعملية التقدم في بلادنا. ويطرح مروة سؤالاً مهماً: ماذا يعني أن يعرّف في أيامنا مواطن عربي نفسه بأنه يساري؟ الإجابة ببساطة هي أن يعلن انحيازه لقضية التغيير الديمقراطي في بلادنا. وهو ما يعني ضرورة توسيع القاعدة الإجتماعية لجمهور اليسار، والتعايش مع حركة يمينية قوية لضمان تداول السلطة، ورد الإعتبار للسياسة بتخليصها من النفاق والخداع والتزوير والشعوبية. إن أوضاع العالم العربي تطرح الكثير من القضايا التي يمكن أن تكون منطلقات لبرنامج اليسار. أول هذه المهام هو بناء الدولة الديمقراطية الحديثة أي دولة الحق والقانون، التي لكي تكون ديمقراطية ينبغي أن تكون علمانية يتم الفصل في كل مؤسساتها بين الديني والسياسي بما في ذلك الأحوال الشخصية. هذا الفصل سوف يؤدي إلى تحرير الدولة من الإستخدام السيئ للدين وتحرير الدين من قبل أصحاب المصالح الذين يقحمونه فيما ليس من وظائفه.

وينبغي على اليسار أن يكون أكثر القوى السياسية مراعاة لما يحدث في العالم من تحولات. وذلك يجعل من قضية البيئة والبحث عن تنمية ملائمة وعدم إهدار الموارد الطبيعية موضوعات أساسية في برنامجه، إلى جانب الموضوعات التقليدية والتي للأسف رصيد العالم العربي فيها قليل، مثل حقوق المواطنين والضمانات الإجتماعية والصحية التي يجب أن تشمل الجميع وحقوق المرأة والإهتمام بالشباب. وفيما يخص القضية الفلسطينية ويؤكد مروة أهميتها لليسار العربي، لكنه يدعو اليسار

إلى نقد أساليب النظم الحاكمة في مصادرة حقوق المواطنين باسم القضية الفلسطينية، وإلى تحرير القرار الفلسطيني من تسلط الحكومات العربية والإقرار بحق الشعب الفلسطيني في جولته المستقلة في حدود ما قبل ٥ يونو ١٩٦٨. ويختتم مروة الكتاب بمجموعة من النصوص التي اختارها من كتابات المفكرين اليساريين العالميين تؤكد بالطبع هذا الميل الديمقراطي بما يعني أن التجربة الشمولية السابقة كانت انحرافاً أو مرحلة وضعها التاريخ بين قوسين لتعود بعدها السياسة إلى مجراها الطبيعي.

يقع الكتاب في ٢١٥ صفحة من القطع المتوسط. ويشمل على قسمين. القسم الأول يتعرض الفصل الأول فيه للتحولات في عالمنا المعاصر. وفي الفصل الثاني يتناول رؤيته لمستقبل اليسار العربي. أما القسم الثاني فيضم نصوصاً مختارة من مفكري الإشتراكية.

نشر في جريدة الأهرام المصرية

بتاريخ ٩ يونيو ٢٠١٠